

أطر التربية والتعليم في نظر ابن خلدون

الطالب الباحث: عبد القادر العربي إشراف الأستاذ الدكتور: بن جامعة الطيب

مخبر الخطاب الحجاجي

مخبر الخطاب الحجاجي

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

إنّ ثنائية التعليم والتعلّم من متطلبات المجتمع الإنساني المتطلع إلى آفاق المستقبل، حيث لا يمكن الاستغناء عن أحدهما. ولما كانا متكاملين تكاملا عضويا اجتهد البيداغوجيون منذ القدم في تطويع الطرائق المفيدة قصد تبليغ المعارف وتحقيق الملكات. ومن ثم كان لابن خلدون الدور البارز في ذلك، والذي تجلّى في اجتهاده لبلوغ تجويده. كيف نظر ابن خلدون لظاهرة التعليم والتعلّم؟ وما هي شروط إنجاح العملية التعليمية في نظره؟ ذلك ما يود هذا المقال معالجته.

الكلمات المفتاحية: التعليم؛ التعلّم؛ الطرائق؛ الملكة؛ القيمة.

Educational Frameworks in Ibn Khaldoun's vision

Abstract: The teaching/learning dualism is a requirement of the civilised society, where one cannot do without one of them. And since they were inextricably linked, pedagogues have tried to adapt useful methods in order to transfer knows and attain talents. Then, Ibn Khaldoun had the most prominent role in talking about teaching/learning value for his long diligence in the need to criticize it for the sake of its improvement and quality. How did Ibn Khaldoun view the phenomenon of teaching/learning? And what are the conditions for the educational process success in his viewpoint?. This is what the current article would like to address.

Keywords: teaching, learning, approaches, value.

القيم الحضارية للفعل التعليمي:

يعتبر التعليم عنصرا أساسيا في الحياة الإنسانية المتطلعة إلى إقامة نظام يزدهر فيه التعايش الهادف، على اعتبار أنّ الإنسان ولد ليتعلّم، ومن ثم صار الكائن الأوحّد الجدير بحمل صفة التعلّم لمزية العقل، ومن ثم ظلت الاجتهادات البشرية تسعى الى إيجاد نمط تعليمي. يضمن شروط البقاء للنوع الإنساني رغبة في العمارة والاستخلاف إيماننا منها أنّ التعليم حركة اجتماعية، وعلمية مسترسلة في الوجود، لا تستنكف عنها أيّ أمة أو شعب. فالحضارات إنما ينشأها الفرد المتعلم، والمجتمع العارف، ولنا في حقائق التاريخ ما يغني عن التذكير والسؤال. فلو

تاريخ تسليم البحث: 16 أكتوبر 2017.

تاريخ قبول البحث: 07 فبراير 2018.

أطر التربية والتعليم في نظر ابن خلدون _____ مجلة فصل الخطاب

أنّ الإنسان في مطلقه ركن إلى الجمود، ولم يفعل طاقته الإدراكية بالتربية والتوجيه، لما كان هناك فرق بينه وبين الحيوان، ولكنه أدرك أنّ وجوده وتماديته، في البقاء إنما هو متوقف على فكرة التعليم والتعلّم. ولأجل ذلك مارس فضيلة التعليم من منطلق قناعاته الواعية أنّ النفعية، بالإضافة إلى الحياة تصنعها الحركة التعليمية بسبب التخطيط، واستغلال المقدرات والإمكانات، متمثلة ابتداء في العنصر البشري الذي هو شخص المعلم بمواصفاته المثالية، التي تحقق الأثر الإيجابي في هذا الفضاء الإنساني بمطلق تناقضاته، وتفاعلاته فالتعليم إذن لم يكن إلا قيمة حضارية مطلوبة بفعل الضرورات الحياتية ولولاه لما تميز الإنسان العاقل عن سواه.

لقد بذل العلماء المسلمون جهودا كبيرة للكشف عن صفات المعلم الناجح، فهي شروط وصفات وسلوكيات استحضرها ابن خلدون والغزالي وابن سحنون والزرنوجي وابن القيم وغيرهم كثيرون⁽¹⁾. وفي هذا الصدد يولي ابن خلدون آراء واسعة في المعلم نلمسها في الآتي:

أ-الإمام بفنّ التدريس من حيث الجمع بين الطريقة والمادة:

لا شك أن طريقة التدريس لها أثر على المادة من حيث الإحاطة بجميع روافدها فنجد ابن خلدون يطرق هذا الباب فيقول: «وذلك أنّ الحذق في العلم والتفنّن فيه، والاستيلاء عليه إنّما هو بحصول ملكة، في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وقَلما تحصل هذه الملكة ما لم يكن الحذق في ذلك الفنّ المتناول حاصلًا»⁽²⁾ فابن خلدون يؤكّد على أنّ المعلم ينبغي له التعمق في مادّته، ويكون مؤهلا للتّحكم في تقديمها في أحسن صورة، وأن يكون عالما بأساليب وقنّيات التدريس المختلفة، حتى يتسنى له التنوع في تناول والأداء، ولتيسير عملية التعلّم ينبغي توفر الوسائط البيداغوجية التي تساعد على تقريب المضامين المعرفية للمتعلم. وهذا ما نلمسه في مبادئ التربية الحديثة، إذ تؤكد على أنّ المعلم لا يجب أن يقدّم مادّته بطريقة جافة، حين التعرّض إلى المعلومات والمعارف والمفاهيم، إنّما عليه الاطلاع الدائم بمسايرة التّطورات الحادثة، التي تفرزها التكنولوجيا والعلوم المستجدّة، سعيا إلى ربط المادة المعرفية بواقع ومحيط المتعلم.

ب-التدريس اللفظي مع استخدام وسائل الإيضاح المناسبة:

لكل مرحلة تعليمية خصوصية ترتبط بمدى فهم المتعلم للمادة المقدمة له ولعل المراحل العمرية الأولى تستدعي حضور الوسيلة الحية لما لها من أثر حي في ترسيخ النشاط الكلامي الذي يقدمه المعلم، يقول ابن خلدون: «من أهمّ ما يلزم المعلم فتح اللسان بالمحاورّة والمناظرة، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التّعليم»⁽³⁾، وهي رؤية تعليمية تعلّمية دقيقة تعبر عن مستوى الاهتمام بالعملية التعليمية، التي ترفع من دور المتعلم في صناعة

معارفه، وتحقيق الأهداف المنتظرة من كل نشاط تعليمي، ويتحقق ذلك بفتح الملكات وإطلاق ما انعقد من اللسان، واكتساب جرأة التخاطب بين المتحاورين في سياق علني مخصوص تحصل معه فائدة التحصيل.

وقد تطورت الدراسات والبحوث العلمية ذات الصلة بالعملية التعليمية التعلّمية في ضوء ما أنتجه الفكر الإنساني في مجال التكنولوجيا، حيث اهتم البيداغوجيون بالمنهج، والبرامج ذات المضامين التي تستجيب للعصر، وتحديد الوسائل العلمية التي تساعد المتعلمين على تقريب المفاهيم، وإدراكها، وتوظيفها بكفاءة. يتطلب هذا تكويناً معرفياً وبيداغوجياً لكل من يقوم برسالة التعليم والتعلم، باعتباره موجّهاً ومرشداً، ومقوّمًا وهذا لا يتأتى إلا بامتلاك المتعلم لأليات التفكير التي تُؤلّد خلال المراحل التعليمية التعلّمية، لينتقل (المتعلم) من تعليم التفكير إلى فكر التعلم.

ج- القدرة على تهذيب الأطفال بفعل المعاملة الحسنة:

ذلك الذي يتبدّى من خلال تأثر الصبية بحسن المعاملة، كالرفق والاهتمام والإثابة، وغيرها من السلوكات التي تجذب المتعلّم إلى رحاب الدرس، بتلقائية وودّ يؤهلانه إلى التّحصيل المبتغى، وفيه يقول ابن خلدون: «وذلك أنّ إرهاب الحدّ بالتّعليم مضّرّ بالمتعلّم في أصاغر الولد، لأنه في سوء الملكة. ومن كان مربّاه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر، وضيّق عن النفس في انبساطها، وذهب نشاطها ودعاها إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث»⁽⁴⁾ فابن خلدون يرى أنّ الشدّة على المتعلّمين مضرة بهم فالعقاب يولّد الإحباط لدى الطّلاب، واستخدام الشدّة والقهر على المتعلّمين، من الضّجر والضّيق والتبرم يسبب لهم الكسل، ويحملهم على الكذب والتحايل ومن ثمّ رأى إذا كان ولا بد من العقوبة فلتكن مقدرة بالقلّة يقول: «لا ينبغي لمؤدّب الصبيان، أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط، شيئاً»⁽⁵⁾

«ولعل سيدنا عمر أدرك سر العقوبة وتوابعها فقال: "من لم يؤدّبه الشرع لا أدّبه الله"، حرصاً على صون النفوس من مذلة التأديب»⁽⁶⁾، فصيانة كرامة النّفس البشرية، التي تستحق التّكريم والرعاية بأسباب الرّفق والإحسان مطلوبة. لأنّ المرء مجبول على حبّ الخير، والأنفس مشدودة إلى حبّ من أحسن إليها. فإذا كان هذا الإجراء في حقّ الكبار، فما بالك بالصّبية وقلذات الأكباد من الفتيان والفتيات؟ الذين تراعى في حقوقهم التّأديبية، والتّعليمية الرّحمة، وجلب المسرّات إلى قلوبهم حتّى يكون ذلك أدعى منهم إلى الإقبال على المطلوب فتنشأ المودّة، وتتوثّق الصّلة بين المعلّم والمتعلم، ويكون التّحصيل ثمرة هذا السلوك فالمبالغة في إقامة

أطر التربية والتعليم في نظر ابن خلدون _____ مجلة فصل الخطاب

العقوبة والتعزير والتوبيخ الزائد مذهباً لتحصيل الطائل من العلوم وفضائلها، وقلماً تنتج العقوبة الشعور بالسكينة والإقبال على طلب الحاجة بأمل ورغبة.

وتتجلى مظاهر حسن المعاملة الموجّهة إلى المتعلّم، في ما يطلق عليه الآن بالعلاقة التربوية الإيجابية، وهي التّمط التّعاملي الذي ينظر إلى المتعلم كقيمة واجبة الاحترام والتكفل، باعتباره شخصية متميّزة مستقلة عن الجماعة المتعلّمة، وما ينسجم من طروحات الفعل التربوي التّعليمي إما إيجاباً أو سلباً.

يؤكد كثير من الخبراء على اعتماد مبادئ المعاملة الحسنة في المساواة والتعامل دون تفرقة بين عناصر الفوج وتوفير الحرّية في إطار مناخ تعليمي يسوده الاطمئنان والثقة بالنفس، مما يؤهل إلى غرس عادات البحث والانغماس والانجذاب نحو مثيرات التعلّم بكل تلقائية، الأمر الذي يساعد على نمو التفكير العلمي، واتجاهات البحث الإبداعي انطلاقاً من أرضية الاستقرار، التي بنتها الرعاية الحقيقية والتكفل القيم، توخيًا لبناء وسط مدرسي متماسك وانسجامات صقيّة تحقق الأهداف بكلّ أبعادها التربوية والتّعليمية.

يقول "منير سرحان": «يبرز هذا التّمط من العلاقة من خلال إيجابية وديناميكية الأخذ والعطاء التربوي من المعلم والمتعلّم داخل الصّف، وفي إحساسهم بالمسؤولية، وفي قوّة الشعور والولاء للجماعة المدرسية، ويكون ذلك على أساس احترام الفرد وتفكيره وتقدير قيمته، وإتاحة الفرصة لنموّه الفردي»⁽⁷⁾ كلّ ذلك ينبغي معالجته على قاعدة المسامحة، وحبّ الخير للولد، واللّين في الخطاب والمعاملة، حتّى يكون قلبه أبعد عن الحزن والتكسير، مادامت القلوب مناطاً للإدراك والإحساس⁽⁸⁾:

إنّ القلوب إذا تنافروا ودها كالزجاج كسرها لا يجبر

وهذا لا يعني بتاتا أنّ أمر العقوبة، وحرمانه من الامتيازات وقطع المشتميات عنه مستبعد. لكن يؤجل العقاب حتى يكون الكيّ آخر العلاج، «لأنّ التّأديب لا يلحق إلّا العاصي المتّرد، ولربّ حرمان من امتياز، قد يقوم سلوك المارق، باعتباره ردعا إجرائيا للغاية منه التقويم، والتذكير لا الإهانة والتعذيب. نفهم أنّ العقوبة تتنوع في شكلها وأسلوبها، ووقتها، وغايتها، فإذا كان من الناس ما يصلحهم العقاب الجسدي المادّي، فإنّ آخرين يصلح في تربيتهم الإشارة والتّوبيخ المهذّب، والعتاب الخفيف كالتهديد الصادر عنه صلى الله عليه وسلم لجاريتته: «لولا القصاص يوم القيامة لأشبعتك ضرباً بهذا السلوك»⁽⁹⁾

د-استغلال وقت الأطفال وتنظيمه:

إنّ التعامل مع الأطفال لا بد أن يستهويه ذلك الشغف لجنبه للعب، وفي هذا يقول ابن خلدون: «ولا تمرّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه،

ولا تمنع في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة"⁽¹⁰⁾

فابن خلدون يركّز على معطى الوقت (الحجوم الساعية) ، بوصفه قيمة لا ينبغي التّفريط فيها بحال، فإذا كان التّعليم حدثا نوعيا، وغاية شريفة فإن اقتضاه لفعل الزمن، أمر تقول به المنهجية التعليمية السليمة، على اعتبار أنّ الطبيعة لا تؤمن بالفراغ، فلذلك المعلّم الحريص لا ينبغي عليه تفويت فرصة الوقت حتى لا يوقع مؤدّبه في مغبّة إضاعة الوقت. ولعلّ هذا الشعور الخلدوني يقرّ بوجود استثمار معطى الوقت في العمل المفيد مصدره القناعة الإسلامية، بفكرة فلسفة الزمن، فكم من النّصوص والآثار الثابتة في حق إشغال النّفس بالعمل ساعة الفراغ...

ونجد ذلك في أثر خير البرية حينما يتكلم عن قيمة الوقت وهو الذي لا ينطق عن الهوى، فيقول رسولنا الكريم: «اغتنم خمسا قبل خمسٍ شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك"⁽¹¹⁾

إنّ ضرورة استغلال وقت المتعلمين وشحنه بالفوائد واجب بيداغوجي، فالرؤية الاستشرافية لعامل الزمن ترى في معطى الزمن عنصر إنجاح التعلّم؛ لأنّ التصرف في إدارة الوقت يعدّ في حدّه مهارة أساسية يتميّز بها المعلّم الناجح، وتساهم في إدارة الفوج الدراسي بمرونة، وبمعنى آخر فإنّ سلوك المتعلمين، وحسن تنظيم أوقاتهم وأزمته دراستهم يدفعهم إلى تقبل ما يطرح عليهم من توجهات تنظيمية ومنهجية، تقودهم إلى الانسجام مع الأهداف المحمّولة على الخطط الدّراسية من قبل المعلّم. يعمل المعلّم الناجح على تحقيق الأهداف التّعليمية في كلّ حصّة بما يتناسب مع الوقت المتاح، موزّعا الزمن المخصص لها فمهارة إدارة وقت الحصّة الدراسية يمكن ملاحظتها من قبل المتعلّم أثناء تلقي المعلومات، وطريقة تنظيمها، وتنظيم عرضها فهي تؤثر في توجيه وتعديل سلوك المتعلم بضرورة استثمار الوقت، بشكل ممنهج إلى حدّ يرمح لكلّ محطة دراسية، ولكلّ مقطع، ولكلّ ممارسة وقتها المحدّد المضامين، والمحدّد الاشتغال الخاص، وفق التّعليمات البيداغوجية المقدّمة، وهو ما يظهر جليّا ضمن المناهج الدراسية التي تعتبر مسألة الزمن من المركبات ذات الأهمية البالغة، فأعدت لذلك شبكة المواقيت الخاصة بكل مستوى، وبكل نشاط وبكل محطة دراسية، إذا تعلّق الأمر بشأن التسيير الديدكاتيكي لمواضيع التّعلم.

وهذا الذي استحضره ابن خلدون في وصيته لأن المدى التعلّمي محسوب بالوحدات الزمنية والمحتوى الواجب تعلمه لا ينبغي تضييعه في لهو أو غفلة أو هروب.

ه - حتمية التعليم بالقدوة:

كتب "عمر بن عتبة" إلى أحد المعلمين لولده حيث قال: "ليكن أول إصلاحك لولدي، إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت"⁽¹²⁾، وهو المعنى ذاته الذي وقف عنده ابن خلدون طويلا ليقرره في عمليتي التعليم والتعلم، ويلزم بفكرة القدوة كل متعاط مع العملية التدريسية يقول: "من أحسن مذاهب التعليم، ما تقدّم به الرّشيد لمعلّم ولده محمد الأمين، فقال: يا عمر إن الأمير قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيرّ يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وصفك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروّه الأذكار، وعلمه السنن، وبصره بواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع المجالس للعواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّن ساعة، إلا وأنت تغتنم فائدة"⁽¹³⁾

ومنه نقرأ رؤية ابن خلدون في فعل التأسّي بالقدوة الحسنة، من منظور الاتّباع والاستئناس اللذين يقوم بهما المتعلّم فيتشربّ عادات معلّمه وسلوكاته، فهو المثال الأنموذج بالنسبة للمتعلمين كافة، فمنه يستقون المعارف وينهلون الفضائل، لأنه لا يختلف من حيث المكانة عن الوالدين حيث هو الجامع للسلطة والتأديب والرفق والحنان والتوجيه.

إن الجمع بين الحسنيين: منح العلم وإعطاء الخلق بين هذه الثنائية تكتمل النفس الإنسانية الراشدة، ولعل ابن خلدون في طرحه هذا لم يكن إلا أخذًا بما أصّله الإسلام، وأقرّه في حياة المسلمين يوم نظر الى شخص النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بوصفه القدوة المطلقة في حياة الإنسانية. حتى قال فيه ربّه: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»⁽¹⁴⁾ ويقول أيضا: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»⁽¹⁵⁾

فحرص ابن خلدون على مسألة الاقتداء بالفضل وأهله، وإنما أراد إدراج شرط الأفضلية في قطاع التعليم والتدريس لشرف المهنة. فما دام في نظره العلم شريفا فلا ينتهي إلى سلك العلم والتربية إلا من زاد فضله في حسن الخلق على قاعدة ابن القيم «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين»⁽¹⁶⁾

صفات التعلم وشرائط المتعلم:

يعتبر المتعلم مقصد كل معرفة من قبل معلّمه ومؤسّسته، فالمتعلّم هو ذلك الطّفّل الذي تتلقفه أيد ومنظومات وبرامج اختلفت مشاربها ومصادرها، لكنّها تتفق في أدنى تصوّرها المشترك في إعدادها؛ لأنه يصير فردا صالحا لذاته وجماعته، تُبنى على أساس خصوصياته البرامج، والعُدَد الدراسية. ومادام المتعلم هو حلقة الربط بين العناصر الأساسية في عملية التّعلم وبناء المعرفة، استوجب إيلاؤه جملة من الشروط، وأتسامه ببعض المواصفات

العلائقية، وتحمله قدرًا من الواجبات والفروض. ومن هذه الخصوصية يرى ابن خلدون أن تلقى المعارف والعلوم من لدن الأطفال تستوجب صفات ذاتية لا تفارقهم لحظة التلقي ضمانًا لنجاح عملية التحصيل، وفي مقدمة ذلك:

شرط الاستماع:

يعتبر الاستماع مطلبًا رئيسًا في بداية التعلّم، بالنسبة للصبي، لأن السماع أبو الملكات اللسانية في نظر ابن خلدون، والثّبيء الذي يُعين المتعلّم على فتح لسانه بالمحاورة والمناظرة والكلام، هو الانغماس الكلي في وسط لغوي، يغرف منه زاده المتمثل في الألفاظ والصيغ والبنى... والأمثال والأحكام والتفاسير والتبريرات، هو إذا سمع ثم قلّد، أو ردّد ما سمعه، يقول: «المتكلّم من العرب حيث كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيل هو أساليبهم في مخاطبتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كلّ لحظة، ومن كلّ متعلّم واستعماله يتكرّر إلى أن يصير ذلك ملكة، وصفة راسخة»⁽¹⁷⁾ وهكذا يكون التعليم في الصغر أشد رسوخًا، وهو أصل لما بعده من الملكات والمهارات، وهو ما ينسجم أصلاً مع المنهج الربّاني الذي تثبتّها الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"⁽¹⁸⁾، وذلك لأنّ التعلّم متحقّقٌ بأدوات خلقية كرّمنا بها الخالق: فالسمع والبصر والفؤاد، أدوات لتلقي الخبرات واكتساب المعارف. ولعلّ الاستعمال القرآني كرّر أمر السمع كثيرًا، بل ربّبه في مطلع السّم الأولويات. فقال الله تعالى: «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ»⁽¹⁹⁾، وقال: «إِن السَّمْعَ والبَصَرَ...»⁽²⁰⁾ وقال: «إِذَا قرئ القرآن فاستمعوا...»⁽²¹⁾ وهذا التأكيد على وظيفة السّم إنّمَا المراد منه، أنّ الله أودع في العاقلين من خلقه بعض صفاته، فهو السميع البصير. فشاء للمخلوق أن يتحلّى بصفات الله الكيفية التي تليق به مخلوقًا بشريًا، فقد أثر عن العرب بقولهم: «اسمعوا وعُوا»⁽²²⁾ وقولهم: «اللغة بنت المحاكاة» أي السّماع. فإن كان أصلاً لتعلّم في مهارة السماع فانظر إلى المعلّم الحاذق كيف يحرص على توظيف هذه الأداة وتنميتها حتى يجعل منها "أذن خير" لا تستقبل إلّا المفيد، ولا تلتفت إلى الرذائل المحظورة، بقوله تعالى: «ولا تجسسوا»⁽²³⁾ فإذا تعود المتعلّم على الإصغاء الجيّد، لا شك أنّ عامل الإدراك تابع لفعل السّمع. فالسمع الجيّد ينتج الوعي الجيّد. وهل غرض وجودنا إلّا الوعي الجيّد؟ ومن هنا يراهن ابن خلدون على الحس السمي ليترقّر فعل الاستيعاب عن طريق التكرار، ليصير ملكة راسخة يستحيل معها الاندثار أو التسيان، ولا سيما وابن خلدون يدري أنّ ثقافة العرب موروثه بالمحاورة والمشافهة.

أطر التربية والتعليم في نظر ابن خلدون _____ مجلة فصل الخطاب

إنَّ من متطلبات المشافهة تحضير سمع المتعلم ولأجل ذلك أصرَّ على فكرة الاستماع الجيد الذي به وحده تحصل فائدة التعلم. فالمعلِّم يتكلم ملقياً بوصفه قدوة تسترعي الانتباه، والمتعلم مقصود بالخطاب لحياسة الملكة بسبب السماع والاستماع ولو لم يكن هذا حقيقة مقررة لما أمر ربنا في كتابه بالقول: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"⁽²⁴⁾ و- الاستعداد:

يُستنتج من رؤية ابن خلدون التركيز على الاستعداد عند المتعلم باعتباره ملكة من ملكات التعلم، يقول ابن خلدون: «إنَّ قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية قليلاً، ثم لا يزال يتدرج قليلاً قليلاً»⁽²⁵⁾

وهذا لن يحصل إلا عبر وسائط أهمها إقامة علاقة وجدانية بين المعلِّم والمتعلم، والعمل على التدرج بتشويقه للمادة المراد تلقينها، وهذا بعد دراسة نفسيته واستعداداتها العقلية، وهو ما اتضح جلياً فيما أصبح مرتكزاً تعليمياً حديثاً متمثلاً في سيكولوجية التعلم، والتي اعتبرت المنفذ إلى المتعلم، وتفعيله بالأقدار الكافية للانغماس في أجواء التعلم، هو التكلُّف به نفسانياً، والعلم بكيفية تعلُّمه، والطرائق البيداغوجية الكفيلة بمساعدته على الفهم والإدراك والتفكير والتذكُّر، ومعرفة الأسباب المعيقة على حدوث التعلم المراد، وعليه نشأت مدارس علم النفس لاسيماً التي تعلقت بالجانب التربوي التعليمي (علم النفس التربوي).

إن الاستعداد شرط من شروط التعلم التي ظل علم النفس التربوي يبحث فيها ويحظى باستمرار وباهتمام العلماء والمفكرين ورجال التربية، في كل زمان ومكان، ينبغي ربطه بشروط التعلم الأساسية، باعتباره سلوكاً يترجم صدقية إمكان القيام بالفعل كنتيجة للتهيؤ العصبي، فهو إذا جملة من القدرات النفسية والجسمانية والوجدانية، التي يتحقق بواسطتها القبول المبدئي، وتشكّل الطاقة الروحية الداخلية المتمثلة في الدافعية وهذا ما أكده "تورندايك"⁽²⁶⁾ في قوله: إنَّ التأثير على عدم الاستعداد يفسر وفق هذا القانون معنى الارتياح أو الضيق ويصوغه في ثلاث حالات لإبراز معنى الاستعداد:

أ- حينما تكون الوحدة العصبية مستعدة للعمل، وتعمل، فإنَّ عملها يريح الكائن الحي.

ب- حينما تكون الوحدة العصبية مستعدة للعمل، ولا تعمل، فإنَّ عملها يزعج الكائن الحي.

ج- حينما تكون الوحدة العصبية مستعدة للعمل، وتجبر على العمل فإنَّ عملها يزعج الكائن الحي.⁽²⁷⁾

إنَّ التهيئة النفسية ترتبط بكثير من المواقف من جملتها الاعتبارات التشويقية وأسر المتعلم بتوجيهه بشكل يذعن للفكرة المراد تقديمها للمتعلم حتى يستدعي ذلك وقوف فكره وتركيزه من أجل متابعة معلمه، وقريب من هذا الطرح يذهب ابن خلدون بالقول: «واعلم أيها

المتعلم أتي أتحنك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة، ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة، وأقدم لك مقدّمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ...ثمّ الصنّاعة المنطقية، هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداه من خطئه⁽²⁸⁾ لأنّ المخلوق البشري خصه على كثير من خلقه بألة العقل التي يدرك بها الحقائق ويميز بها بين البدائل والاختيارات، ومن ثم كان مطالبا بالعناية به صونا، وتربية فلولاه لعدّ الكائن البشري في تعداد العجماوات.

والخلاصة التي ننتهي إليها:

- 1- يعدّ ابن خلدون رائدا من رواد الفكر التعليمي مازالت آراؤه حقل بحث ودراسة مفتوحة.
 - 2- إنّ جلّ آرائه التربوية تشكّل وصفات علاجية لعلل واختلالات أصابت النشاط التعليمي التعلّمي منذ قرون بسبب الجمود، والغفلة عن قيمة هذا الفن.
 - 3- إنّ الشروط المقرّرة في فكر ابن خلدون التربوي والتعليمي لا تزال تحظى بالحيوية والاعتبار، في حياة الناس على مساحة رحبة من الوجود النشط ضمن فعالية الحركة الإنسانية التي نعيشها.
 - 4- إنّ العمل التعليمي التعلّمي تعقّدت مسالكه، وتكلّفت مطالبه.
 - 5- إنّ التحكم الفعّال في مساراته بالقدر المطلوب لا يزال حلما.
- وعليه تقتضي الحكمة إلى وجوب التعاطي مع التعليم بالرجوع إلى أصول التربية لدى فقهاء التعليم من أمثال: ابن خلدون وابن الأرق، والزرنوجي، وابن سينا...لأنّ في طروحاتهم ما تتقاطع مع مفرزات المقررات البيداغوجية المعاصرة اليوم.

مراجع البحث وإحالاته:

1. ينظر على سبيل التمثيل المقدمة لابن خلدون، وأداب المعلمين لمحمد بن سحنون أو آداب المعلمين لابن عرفة، وتعليم المتعلم في طرائق التعلم لبرهان الدين الزرنوجي.
2. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار العلم بيروت، ط11، 1992، ص 430.
3. المرجع نفسه، ص 531.
4. المرجع نفسه، ص 540.
5. المرجع نفسه، ص 540.
6. المرجع نفسه، ص 540.
7. منير مرسي سرحان، اجتماعيات التربية، دار النهضة، بيروت، ط1، 1981، ص 200.

8. علي بن أبي طالب: ديوان شعر إمام البلغاء، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار ابن زيدون للنشر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط. د. ت، ص 51.
9. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، 1986، ص
10. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار القلم-بيروت ط1، 1992، ص 540.
11. حديث نبوي شريف، أخرجه الحاكم في المستدرک رقم 341-4-7846، صححه الألباني في صحيح الجامع رقم 1077، الشابكة، الموقع:
fatwa.islamweb.net/fatwa/index.hp?page=showfatwa&option=fatwa&id=37111
12. الأبراشي محمد، التربية الإسلامية وفلاسفتها، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، ص 194.
13. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار العلم بيروت، ص 541.
14. الآية 04، سورة القلم.
15. الآية 21، سورة الأحزاب.
16. ابن القيم: هو محمد بن أبي بكر أيوب المشهور بابن القيم الجوزية (721هـ -778هـ) من أشهر علماء المسلمين في القرن الثامن هجري، من أشهر أعماله: أحكام أهل الذمة، بدائع الفوائد، زاد الميعاد.
17. الصغير بن عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1984، ص 111.
18. الآية 78، سورة النحل.
19. الآية 38، سورة مريم.
20. الآية 36، سورة الإسراء.
21. الآية 204، سورة الأعراف.
22. الخفاجي عبد المنعم: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت 1990م.
23. الآية 12، سورة الحجرات.
24. الآية 204، سورة الأعراف.
25. صالح محمد أبو جادو، علم النفس التربوي، عمان، ط 1، ص 136.
26. تورندايك (1874-1849) عالم نفسي أمريكي باحث في مجال التعلم، صاحب كتاب علم النفس التربوي (1913).
27. موقع أكاديمية علم النفس، 2018-11-25، الساعة: 19.00
<https://www.acofps.com/vb/showthread.php?t=26399>
28. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، ج2، ط1، 1984، ص 705.